الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

الله نور السموات والأرض

الفصل الثانى : فطرة الحياة

وعدنا بتوفيق الله تعالى أن نضع مقاييسنا لدراسة الشخصية الانسانية وأهدافها فى فهم الحياة ، وتطور الحضارة بين يدى الحقيقة المحمدية الكريمة .

ولعل من الخير أن نبدأ اليوم بمقياس المقاييس ـ جميعا ـ مقياس العقل وفطرة الحياة ..

ان منطق طبيعة الأشياء ـ كما يدركها كل عاقل ـ يقول :

ان الانسانية تهدف من حياتها أن ترقى فى سلم التطور نحو الكمال البشرى وذلك يتطلب استغلال كل الطاقات التى زودت بها الانسانية فى النفس وما وراء النفس ـ ان أمكن ـ فى المادة وما وراء المادة .. ما دام هناك كيان لشىء ما .

فالأرض وما حملت من بحار وصحار ومناجم ونبات وحيوان ، وخصب ونماء والسماء وما أقلت من نجوم وشموس وأقمار ، واشعاع وضياء ، وسحب وأعاصير ـ كل أولئك ـ مجال استغلال الانسانية ـ لو قد فهمت رسالتها .

وذلك طريق الانسانية منذ كانت الى اليوم وغدا .

أو هكذا هو فى فهم قادتها الكرام من حكماء وفلاسفة ومصلحين .

وقد تعاون فى هذا السبيل ـ وما يزال ـ أهل الحكمة الهادية ، وأرباب السياسة والتشريع وأصحاب العبقرية فى الابتكار والفن ، وذوو السلطان والجاه ، ودعاة الاصلاح .

وما تزال كل أمة عامرة بهؤلاء القادة ـ رسموا ـ ويرسمون خطط الاصلاح فى سبيل هدف الانسانية الرشيد ـ ونعنى به :

الوصول بها الى مرتبة الكمال البشرى ، وتشييد صروح الحضارة فى كنف السعادة وظلال السلام .

وعلى مدى العقل الضارب فى أعماق الزمن ، وعلى مد البصر فى جنبات المعمورة نشاهد مواكب الاصلاح المتدافعة لاستغلال كل طاقة بشرية فى الجسم والنفس ، وكل طاقة مادية فى الذرة والمجرة ، وما تزال مواكب العلم فى ثورة ضد المجهول حتى خرجت علينا بثمرات جديرة بأن نغتبط بها حقا .

ففى عالم الذرة - عدا قنـــابل الدمار - ذلك المفاعل الذرى العجيب (السيكلوترون) أعجوبة كبرى فى القرن العشرين لتحطيم الذرة واستغلال طاقتها لخير الانسانية ، ثم ما يتصل به فى عالم الدقة تلك (الكاميرا العجيبة - كاميرا بيكمان هوايتلى) ، والتى تلتقط مليون وأربعمائة ألف (١٫٤٠٠٫٠٠٠) صورة فى الثانية الواحدة ، ولو التقطت شريطا فى دقيقة واحدة لاحتاج عرضه فى (سينما) الى ٤٠ يوما كاملة دون انقطاع .. ومايتصل بهما فى عالم الذر ذلك المجهر الالكترونى ذلك (الميكرسكوب) الذى أخذ يغوص بنا فى أعماق المادة حتى وصل بنا الى عالم الفيروس - المادى الحيوى - الذى يحير العقل البشرى فى تكوينه وخطره .

وسيكون لذلك - بتوفيق الله تعالى - أعمق الآثار فى دراســة الطب والتشريح ودراسة الذرة ومكوناتها والكشف عن طاقاتها .. وما خفى كان أعظم .

أما عالم الفضاء فقد نصبوا لدراسته مراصد كثيرة فى أنحاء العالم لعل من أروعها - مرصد جبل بالومار بكاليفورنيا - فقد بلغ قطر عدسته ٢٠٠ بوصة - أى ما يقرب من خمسة أمتار ، أما العجيب فيه فهو ما أعلنه مديره فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ م من رصد مجرات تبعد عنـــا ألف مليون أى (١٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ بليون) سنة ضوئية أما السنة الضوئية فاصطلاح يقصدون به أن الضوء يسرى فى الفضاء بسرعة ٣٠٠ ألف ك م فى الثانية الواحدة - أى (٣٠٠٫٠٠٠ × ٦٠ ثانية × ٦٠ دقيقة × ٢٤ ساعة × ٣٦٥ يوما) . وأما عجيبة الفضاء الأخيرة فهى الصواريخ والأقمار الصناعية التى انطلقت فوق جاذبية الأرض ، وكون الأخير منها كوكبا عاشرا فى مجال جاذبية الشمس نفسها - وما خفى فهو أعظم .

أما مؤتمرات السلام والحكمة الهادفة لسعادة البشرية وتحضيرها فهى الأخرى تعقد فى كثير من بقاع العالم ، ولعل أنشطها حقا ما عقد أخيرا فى قارتى افريقيا وآسيا ، فى باندونج والقاهرة المعزية الناصرية وأكرا - - وكما يعقد فى الغرب . ولكننا نستطيع أن نلمح الدور الايجابى الذى يقوم به الشرق المشرق مهد النبوات ومهبط الحكمة ، ومنارة الحق منـذ طفولة الانسانية .. ليأخذ دوره الحقيقى فى قيادة البشرية نحو الكمـال الانسانى بعد أن ضل الغرب وطغت عليه المادة بظلمـــاتها وشهواتهـــا وزخرفها ..

أما الكلمة التى قالها حقا - قائد العروبة الرئيس جمال عبد الناصر :

« اننا على موعد مع القدر » فهى كلمة الالهام العالى التى تعبر بحق عن تطور الشرق الخطير فى الفترة الأخيرة ليأخذ دوره الايجابى فى قيادة البشرية نحو السعادة والسلام ، وستشهد افريقيا - تلك القارة السوداء كما يقولون - أعظم فتح ، وسيشهد الشرق العربى أروع انتصار فى سبيل الحق والحكمة لاسعاد البشرية .. ومن مصر بالذات - مهد الفراعنة ومهجر الاسلام نور الحياة ..

وان غدا لناظره قريب .. ولتعلمن نبأه بعد حين ..

والواقع أن كل تعويق لموكب البشرية الصاعد نحو الكمال البشرى - انما هو جناية كبرى على الانسانية ، فلو قد فهمت الهيئات الدولية العالمية واجبها حقا لنحت من قيادة الدول كل أنانى حقوده يوجه قواها نحو التدمير والتخريب والبغضاء ، ثم عليها أن تعمل جادة لتوجيه امكانيات العالم لتسخير طاقات الكون والعقل ، فما زالت الارض ومحيطاتها ، وأعاصيرها ، والشمس والنجوم وطاقاتها مستعدة أن تزود الانسان بفيض زاخر من النعمة والرخاء ..

وما زال العقل وقوى الانسان الروحية - التى كشف عنها الصوفية الكرام - وغفل عنها الظاهريون والماديون - مستعدة أن تمد الانسان بفهم رائع لأسرار الكون والحياة .

ومؤدى هذا الحديث أن تتحول المؤتمرات السياسية العالمية الى مؤتمرات للعلوم ، وأخرى للحكمة الهادية لاستغلال طاقات المادة والحياة .

والانسانية صائرة لذلك يوما ما - وقريبا بتوفيق الله تعالى - اذ أن سنة التطور التى تحكم هذا الكون تقول فى قياس من الفطرة الانسانية :

« ان الذى يرعى طفولة البذرة بعد تفتحها عن ورقات لتصير شجيرة فشجرة وارفة الظلال تعطى الثمار والبذور لاطراد الحياة ..
لا شك أنه سيرعى الانسانية لتعطى أروع ثمرات الخير والحق وأسمى آيات الحكمة فى سبيل الحضارة البشرية واسعادها .. »

وانه لعجيب - حقا - أن نرى المادة المظلمة قد كشفت عن حقيقتها القناع ، فاذا هى طاقة جبارة مدمرة - أو معمرة - لكل ذرة صغيرة فيها لتلعن أن المادة من طاقة واشعاع وضياء .. ثم ننسى أن قوى العقل ، وعواطف النفس ، وطاقة الروح أجل وأروع ، وأرقى وأبقى فى هذا الوجود !!!

فما المادة بشىء بجانب أشواق الحياة وعبقرية الحياة ، ونور الحياة !!!
وبعد :

فلعل هذا المقياس الذى أسميناه مقياس الفطرة أو مقياس المقاييس - يستمد كيانه من أعماق العقل فهما صحيحا لرسالة الانسانية فى الحياة ومن ثم فهو يستمد كينونته من كل علم مدروس أو معروف .

وهو كما رأينا يعطى منطق الايمان بروح الحياة ، كما يقنع عقل المتشبثين بالمادة فلا يرون نور الحياة وروح الوجود .

واذا أردنا أن نصوغ هذه الحقائق من منطق محمد الكريم ورسالته وسيرته لرأينا أنها لم تتبلور بهذه الصورة وبتلك القوة ، ولم تعرف واقع الحياة ومجربا تالتاريخ الا فى رسالة محمد الكريم وهدية نوره الهادىء

فعلى وفرة ما جاء للانسانية من هداة وأنبياء ، وفلاسفة وحكماء ، ومرشدين وزعماء ، وعلى كثرة ما تركوا من عظات وخطط للاصلاح وكتب

و (يوتوبيا) فاضلة وجمهوريات رشيدة ، وعلى ضخامة ما قاموا من كفاح وما أحدثوا من آثار .. كل أولئك لا يعدو — بحق — سطورا فى رسالة محمد الكريم وشخصيته وهداه ..

ان كل أثر كريم كان لمن سبقه من الكرام لم يتعمق أسرار الوجود ، ولم يترك لسير البشرية دفعة قوية الى الكمال — كما كان لمحمد العظيم ..

وان كل نهضة وتطور كبير فى العالم اليوم آنما هو أثر مباشر أو غير مباشر للحضارة الاسلامية الكبرى التى أسسها وقادها محمد العظيم ، وربى لها بعده أمة — كانت فى حضيض البداوة ، وجهالة الوثنية ، وظلام الحياة ، وقساوة الطباع والاخلاق ثم فاصبحت به وبرسالته أمة تملأ التاريخ — منذ كان هو والى الأبد بتوفيق الله تعالى — لتشيد الحضارة العالمية المشرقة فى كل ميدان للحياة .

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيدا) ويأبى الله ألا أن يتم نوره .

وهذه الفكرة الأخيرة نترك لكتاب الفكر والتاريخ من رجال الاسلام ومن غيرهم يقررونها بأنفسهم فحسبنا أن يعترف بالحق المنصفون من أهل الأديان الأخرى ، وان كانت هذه الحقيقة — فى الواقع — أصبحت فى غنية عن حديث مؤرخ أو ناقد فقد سجلت فى أعماق التاريخ الذى لا يكذب ، حتى لقد قال مستشرق ومؤرخ :

ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) — من بين جميع الأنبياء — هو الشخصية التاريخية التى كتب عنها كل صغيرة وكبيرة فى ثقة ويقين كبيرين .

والآن : لنسمع ما يقوله الأستاذ العقاد فى كتابه — عبقرية محمد — ص ٢١٥ « ان التاريخ كله بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — متصل به مرهون بعمله ، وان حادثا واحدا من أحداثه الباقية لم يكن ليقع فى الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله .. فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوروبا ولا الحرب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الامريكية ، ولامساجلة الصراع بين الاوروبيين والاسيويين والافريقيين ، ولا الثورة الفرنسية ، وما تلاها من ثورات .. ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك كانت واقعة فى الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذى ولد فى شبه الجزيرة العربية بعد ٥٧١ سنة من ميلاد السيد المسيح — عليه السلام » .

ولنا من هذا الايجاز تفصيل وتدليل — بتوفيق الله تعالى ان شاء الله — ثم تأتيه نفس الشهادة من كل منصف من غير المسلمين ممن درس التاريخ والنهضات العلمية والرسالة المحمدية الكريمة .

ولنبدأ بشهادة — سير وليم موير — فقد عرف بهجومه على الاسلام ومع ذلك فلنسمعه يقول : « جاء محمد بدين يمتاز باليسر والايجاز ، وكان له من التأثير القوى ما يدهش الألباب ، ولم يحدث منذ عهد المسيحية الاولى

التى نبهت العالم من رقاده ، وشنت حربا شعواء على الوثنية أن رأى العالم مثيلا لهذه اليقظة الروحية وهذا الايمان الذى حمـــل المسلمين على بذل النفس والنفيس فى سبيل دينهم طيبة نفوسهم ٠)

« كانت مكة والجزيرة العربية كلها غارقة فى سبات روحى عميق ٠٠ ولم يكن تأثير المسيحية واليهودية والمذاهب الفلسفية فى العرب الا تأثيرا سطحيا ، وكان العرب يتمرغون فى حمأة الخرافات والقسوة والرذيلة ٠٠ وكانت مكة قبل الهجرة (٢ يوليو عام ٦٢٢ م) قد تردت فى هذه الهوة فما أعظم التغيير الذى طرأ عليها الآن خلال ١٣ قرنا ٠٠ عصابة مؤلفـة من بضع مئات نبذوا عبادة الأوثان ويعبدون الله وحده ٠٠ يعمـــلون الصالحات ٠٠ ويلتزمون حدود العفة والعدل ويعتقدون أن ما فى الكون من نعمة فمن الله ٠٠ وأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) هو الذى أحيا مواتهم»

ويقول كارليل : « من المسلم به أن محمدا لم يكتب ولم يقرأ ولم يتلق تعليما مدرسيا لكنه عرف منذ نشأته بالرجولة وسمو التفكير ، واصالة الرأى فى كل ما يقول ويعمل وتاريخ حياته حافل يثبت أنه كان - دائما - رجلا اجتماعيا صديقا صدوقا مخلصا ودودا » ٠

ويقول بوزورت سمث : « هناك ظاهرة فريدة فى التاريخ لمحمد صلى الله عليه وسلم هى أنه تفرد بنشر ثلاث مؤسسات : أمة وامبراطور ودين ، وهو الامى الذى لم يعرف القراءة والكتابة)

والآن : فما رسالة الانسانية فى هذا الوجود من دعوة محمد الكريم وشخصيته ؟٠٠

فالى لقاء قريب أن شاء الله ٠ والسلام عليكم ورحمة الله ٠

حسنى طه شكيبان

بمعلمات راس التين - اسكندرية

———★★★———